

الشعر والنثر في الجاهلية

لخص الأستاذ الدكتور طه حسين كتابه (في الأدب الجاهلي)
في جملة واحدة اختتم بها الكتاب فقال :

« نحن ننظر الى الأدب الجاهلي كما ينظر المؤرخ الى ما قبل التاريخ ويتخذ لدرسه الوسائل التي تتخذ لدرس ما قبل التاريخ .
فأما تاريخ الأدب حقا ، التاريخ الذي يمكن أن يدرس في ثقة
واطمئنان ، وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تزول فانما يبتدىء
بالقرآن » .

والدكتور طه حسين انما أراد بهذا أن يرفض كل ما أورد
المؤرخون القدماء من نصوص الأدب الجاهلي سواء في هذا شعره
ونثره . بل لعله عنى برفض الشعر عناية كبيرة جعلت حديثه عن
النثر تكرارا لما قال في أمر الشعر دون زيادة . فالعرب عنده
« لم يحفلوا برواية الشعر ولم يحتاطوا فيها بل انصرفوا عنها
طائعين أو كارهين ، ولم يراجعوها الا بعد فترة من الدهر وبعد
أن عبث النسيان والزمان بما كان قد حفظ من شعر العرب في غير
كتابة ولا تدوين » وهو اذ يطبق هذا المنهج على نثر الجاهليين
يعرى العصر الجاهلي تماما من كل ما يمت الى الفن القولي بصلة؛
ويبدأ من عند القرآن بداية الواثق المطمئن قائلا « ولسنا نخشى
على هذا القرآن من هذا النوع من هذا الشك والهدم بأسا .
نحن نخالف أشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون أن القرآن في

حاجة الى الشعر الجاهلى لتصح عربيته وتثبت الفاظه . نخالفهم فى ذلك اشد الخلاف لأن أحدا لم ينكر عربية النبى فيما نعرف ، ولأن أحدا لم ينكر أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته . واذ لم ينكر احد أن النبى عربى واذ لم ينكر أحد أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه فأى خوف على عربية القرآن من أن يبطل هذا الشعر الجاهلى وهذا الشعر الذى يضاف الى الجاهليين » .

واذا كانت هذه النظرية التى ساقها الدكتور طه حسين قد فشلت فى هدم الشعر الجاهلى هدماً كاملاً اذ ظل ما نقلته كتب المؤرخين من شعرهم موضع اعتراف الدارسين وعنايتهم ، وان بدأوا يأخذونها بكثير من الحرص والعناية والفحص ، الا انها ساعدت فى القضاء على الاهتمام بالنثر الجاهلى واهمال أمره . فان احتاج المفسرون لألفاظ القرآن الى الاستشهاد بالشعر العربى وأحسوا بضرورة الحرص على روايته فهم لم يحسوا بهذه الحاجة حيال النثر . وحتى هذا النثر الذى شاعوا أن يعترفوا به رفضه الدكتور طه حسين حين طبق نظرية الانتحال رفضاً قاطعاً . وتابعه كثيرون كما رأينا فانسدل ستار كثيف على نثر الجاهليين الا ما ندر من خطب مستقيمة ، ومجموعة مما أسمود بسجع الكهان .

ومن هذه النقطة بالذات نبدأ ، فالقرآن باعتراف كل الدارسين نص ثابت لا شك فيه ، وحتى الباحث الذى شك فى كل شئ لم يشأ أن يسحب شكه هذا على القرآن فاعترف به نصاً

دحيحا عربيا لا تقربه معاول الهدم بحال . والقرآن بهذا وبما
يمثل من ثروة فكرية وبلاغية وفنية ضخمة هائلة يهدم كل محاولة
لهدم الادب الجاهلى هدمًا كاملا . والا فكيف يمكن أن نعتبر
القرآن بداية أدبية لأمة من الأمم .. كيف يمكن أن يستقيم مع
العقل والمنطق بل ومع طبائع الأشياء أن يظهر هذا الكتاب فجأة
منكاملا فنيا وفكريا دون أن تكون له جذور يقوم عليها ويستمد
منها قوته وتأثيره ..

كيف أحس العرب بقيمة القرآن وهو — اذا صح افتراض
الدارسين — بداية لا أصل لها عندهم ، ولا شاهد يسبقه ويعروه
القصور ليشير بقصوره الى كمال القرآن وأهميته .

الطبيعى والمنطقى كذلك أن العرب عرفوا من صور التعبير
الأدبى ما جعل القرآن اليفا اليهم واضحا عندهم ، ثم دليلا بلاغيا
ضخما على الوحي والرسالة .

ولسنا بهذا نريد أن نناقش نظرية الانتحال فهى ليست من
موضوعنا فى شىء ، ولكننا فى واقع الأمر نريد أن نناقش قضية
أعمق وأخطر وأكثر ثبوتا فى أذهان جبهة الدارسين ، وهى أن
القرآن بداية وما سبقه ليس بشىء .

وتدخلص الدارسون من هذا الحرج عندما قالوا : ليس
القرآن شعرا وليس نثرا وإنما هو قرآن .. متبعين فى هذا
الباتلانى صاحب أعجاز القرآن وعلماء عصره العباسيين .

فكانما هم أرادوا أن يقولوا أن القرآن ليس وليد تطور فنى عرفه العرب وانما هو شىء فريد جديد تماما .. وهذا صحيح من الوجهة الدينية . ولكنه لا ينهض دليلا على شىء من الوجهة الفنية . فاذا سلمنا أن القرآن صورة تعبيرية جديدة لم يكتب مثلها العرب قبله ، فلا نستطيع بحال أن نسلم بأنه كان بعيدا عن الفهم وتذوقهم ، والا كيف نفهم تذوقهم له ذلك التذوق الذى جعله معجزة قائمة بذاتها .

الطبيعى اذن أن العرب عرفوا من ألوان التعبير الفنى ما جعلهم يستطيعون تذوق بلاغة القرآن وادراك قيمته ورفعته الى القدر الذى احلوه فيه . والطبيعى أيضا أن القرآن لم يوقف حركة الانتاج الفنى بحيث نستطيع أن نسمى العصر الجاهلى عصر ما قبل القرآن ؛ ونسمى العصر الإسلامى عصر ما بعد القرآن .. بل لابد أن الحياة ظلت سائرة ، وأن أذواق الناس أخذت تتبلور تدريجيا ، ولكنها لم تخلق من جديد خلقا .. وقد كان ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء منطقيا مع نفسه حينما ضم شعراء عصر صدر الاسلام الى شعراء العصر الجاهلى لغلبة الصبغة الجاهلية على شعرهم .. ولم يظهر — بكل أسف — للنثر من يفعل فيه فعل ابن سلام فى الشعر . ولعل هذا يرجع الى حد كبير الى أن صورة النثر التى كانت أمام الدارسين عن العصر الإسلامى كانت تختلف فى حقيقتها كل الاختلاف عما تخيلوه من صورة له فى العصر الجاهلى . فالحافظ يقول فى (البيان والتبيين) : « لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا ولا أعدل

وزنا ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلعاً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناد ، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم » .. فالصورة التي يطالعها الدارسون للنثر بعد القرآن صورة مشرقة تدل على عناية بالمعنى وإبانه عن قصد وليست كلاماً مهروضاً فيه عبث لفظي كذلك الذي نقلوه عن العصر الجاهلي ، ولا يمكن أن يتم هذا التفسير بين يوم وليلة ، وإنما الطبيعي أنه تم على مراحل وأنه على أي حال امتداد لتراث سبقه وأسهم في تطوره ووضع بذرته الأولى . والسؤال هو : أين هذا النثر إذن ؟

القرآن نفسه يجيبنا على هذا السؤال ..

يقول ابن هشام في السيرة أن الوليد بن المغيرة وهو من الدخوم الإسلام قال عن القرآن « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الأنس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق » .

فالمسألة من الوجهة الفنية كانت معركة بلاغية بين القرآن وبين صور التعبير المختلفة التي عرفها العرب ، انتهت بانتصار القرآن انتصاراً انتزع من عدوه هذا الاعتراف بالغلبة الساحقة .

فما هو كلام الأنس وما هو كلام الجن .. ؟

أما كلام الجن فالمقصود به سجع الكهان إذ يقول الجاحظ في البيان والتبيين أن العرب في الجاهلية كان فيها طائفة تدعى التكنن وإنها تطلع على الغيب وكان كل كاهن منها يزعم أنه ستخر

له (رئى) من الجن يسترق له السمع فيعرف عن طريقة ما كتب للناس فى الواح الغد ، وقد عرف منهم سطيح الذئبى وشق ابن معصب الأنمارى وسلمة الخزاعى وغيرهم ممن تجد حديثا عنهم فى الأغانى كما تجد نماذج من سجعهم واغرابهم .

وقد اكتفى القرآن بالقضاء على عبثهم بما أورده من صور بلاغية رائعة جعلت ما يأتون به ضحلا باهتا يقف عاجزا أمام روعة بلاغة القرآن وسبكه . كذلك نهى الرسول عن سجع الكهان كما جاء فى اعجاز القرآن للباقلانى . والواقع اننا نحس أن هذا اللون من الكتابة انما كان يقصد به التأثير على عقول السذج من الناس ، واقتناعهم — وراء طنطنة الالفاظ وغرابتها وما يعطى لها السجع من موسيقى — بصحة ما يدجل به هؤلاء الكهان ، وقد كان يكفى أن يؤمن الناس بدين صحيح وأن ترفع من على أعينهم غشاوة الجهل والكفر ليسقط الكهان وسجعهم من كل حساب .

أما كلام الانس فنحن نعرفه شعرا ونثرا .

ونزعم أن القرآن وهو يخوض معركة البلاغة مع العرب لم يزعجه أمر الشعراء فى شيء ، فقد اكتفى بأن وصمهم بأنهم الغاوون ، ولم يحتج الى جهد كبير ليصرف الناس عنهم . وما هو الا أمر القى فننفذ .. وربما كان الأمر أن الشعراء يمثلون طبقة معينة من التفكير وبالتالي قطاعا معيناً من المجتمع ، جاء الاسلام ليقتضى على جبروته وسطوته ، وعلى ما يتمتع به من حقوق موروثه جعلته يستبد بالحياة والناس جميعا .. فالشعراء كانوا يتكسبون من

مدح المترفين من أبناء الجزيرة وقد جاء الاسلام ليسوى بين الناس فبار سوق الشعر ، وأصبحت تجارته خاسرة في عصر ينادى بالمساواة ، ويصرف جهد الناس وقدراتهم الى نشر الدين والدفاع عن قضية الحق . . وربما كان الأمر أن الشعر كانت له مواسمه وجلساته ولم يكن هو الحديث المتداول اليومي الذي يشكل خطرا على الحديث الجديد . بل ربما كان الأمر أن الشعر كان يحمل قيما زائفة من فخر وعصبية واثارة للشر والفساد ، ومناداة بأحساب وأنساب كان يريد الاسلام أن يقضى عليها ، وكان يكفى أن يحل في قلوب الناس السلام لبيتعدوا وحدهم عن دعوى الحقد والبغضاء والتعصب ، وربما كان الأمر أن ما قرره الاسلام في أمر الشعراء كان المجتمع العربي نفسه قد فرغ من تقريره بالفعل . . ربما كان الأمر هذا كله أو غيره ، الا أن الذي لا شك فيه أن القرآن — وهو المعجزة البلاغية الأولى — لم يقارع الشعر ولم يحسب له حسابا .

وربما كان الأمر أيضا في كلام الوليد بن المغيرة أن الشعر أيضا من كلام الجن فقد كان الشعراء يعتبرون الشعر الهاما من قوى خفية هي الجن ، اذ كان لكل شاعر شيطانا يلهمه ما يقول ، فيكون الشعر بهذا أيضا من كلام الجن .

بقى أمر النثر ، ونزعم أن المعركة البلاغية الحقيقية التي خاضها القرآن انها كانت ضد النثر . ولست أعنى بالنثر هنا هذه الخطب المنتثرة في بعض الكتب مثل الطبرى والأغانى والعقد الفريد والأمالى كنماذج من خطب الجاهلية ، وانما أعنى نوعا من النثر حفل بالمضمون والشكل معا ، نوعا خطيرا ملأ قلوب الناس وعقولهم ، نوعا يمتد تأثيره لا على فئة أصحاب البلاغة المزوقين المزينين وحدهم ، وانما يبعد أثره ليمتد الى كل فئات الناس.

ينقلونه ويتناقضونه في اعجاب حقيقى وايمان كبير .. هذا النوع
خطر دليس فى لفظه وانما خطره فى مضمونه ، فالقرآن ككتاب
دين لم تكن من مهمته أن يتفوق على أصحاب البلاغة فى ميدانهم
وحسب ، وانما كانت مهمته أن يتغلغل فى قلوب الناس وعقولهم
ليحمل لهم مفهومات جديدة يدخلها الى نفوسهم مكان مفهومات
أخرى خاطئة احتلت هذه النفوس زمنا ..

جاء الاسلام ليقاوم عقائد فاسدة ، وليقاوم مبادئ فاسدة ،
وليقاوم مثلا للحياة فاسدة .. وهذه العقائد والمبادئ والمثل انما
تتمثل فى تراث كبير يملأ عقول الناس وقلوبهم فكان على الاسلام
أن ينزع هذه العقائد نزعا ، وأن يزيلها ليحل محلها ما يشاء ..
فكيف حارب القرآن هذه العقائد والمثل الخاطئة .. لقد لجأ
القرآن الى القصص يستخرج منها العبر ويرسم بها المثل ويشرح
بها الخير والشر .

ولجوء القرآن الى القصص دليل واضح على أنه كان يعرف
أنها الطريق الذى ينفذ به الى عقول الناس وقلوبهم ، فليس
معقولا أن يخاطب الكتاب الكريم الناس بأداة جديدة عليهم
وأسلوب لم يعهدوه من قبل ، بل الطبيعى ان القرآن الكريم فى
اتجاهه نحو القصص انما كان يسد حاجة فنية عند العرب ،
ويحل تدريجا محل فن قديم لديهم قارعه بنفس سلاحه وانتصر
عليه .. وقد قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« ما كنتم تتحدثون به اذا خلوتم الى مجالسكم ؟ قال : « كنا نتناشد
الشعر ، ونتحدث بأخبار جاهليتنا » فأخبار الجاهلية اذن كانت
شيئا غير الشعر ، فما هى هذه الأخبار ؟

يقول الهمداني في كتابه (الوشى المرقوم) : « لم يصل الى احد خبر من اخبار العرب والعجم الا من العرب ، وذلك لان من سكن مكة احاط بعلم العرب العاربة واخبار اهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون اخبار الناس . وكذلك من سكن الحيرة وجاور الأعاجم علم اخبارهم وأيام حمير وسيرها في البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى اسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبار الأمم جميعا لأنه كان في ظل الملوك اسيرة » .

هذه أخبار الجاهلية اذن ، لا يقتصر امرها على احداث الجزيرة وتاريخها وانما تمتد لتشمل ما حولها من ثقافات تؤثر في عقلية العربى ويحفظها في قلبه .. وهو يأخذ منها كلها ما يستحق الرواية ، اى ما يستهويه ويستهوئ غيرة ، وتنتقل هذه الاخبار بين العرب تروى في مجالسهم ويتسامرون بها ..

اكاد ازعم ان هذا اللون النثرى هو الذى عرف القرآن خطره على العقول والقلوب معا فشاء ان يقضى عليه بما قص من قصص . ويؤكد هذا ما يرويه ابن هشام من « ان النضر ابن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها احاديث ملوك الفرس ، واحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

مجلسا فذكر بالله وحرر قومه ما أصاب من تبلهم من الأمم من
نقمة الله ، خلفه في مجلسه اذا قام ، ثم قال: أنا والله يامعشر
قريش أحسن حديثا منه ، فهلهم الى ، فأنا أحدثكم أحسن من
حديثه ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ،
ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثا مني ؟ .. ويقول ابن هشام:
وهو الذي قال فيما بلغني : سأُنزل مثل ما أنزل الله . » .

فالمسألة اذن كانت شبه معركة تعتمد على القصة كفن
يستهوئ الناس ، وهو في الوقت نفسه يترك أثرا لا يمحي
في النفس اذ يثبت مضمونه بشكل غير واضح ولا مباشر ..
والسؤال الذي يتبادر الى الذهن هو ، هل هذه القصص التي
ذكرها القرآن الكريم جديدة كل الجده على العرب ، أم ان فيها
اشارات الى قصص سبق ان عرفوا بأمرها وتناقلوها وحملت
لهم من الدلالات ما شاء القرآن ان يحويه ويحل محله دلالات
أخرى ؟ .

الأقرب الى العقل والمنطق أن هذه القصص كان يعرفها
العرب ، فهم قد عرفوا ولا شك قصة موسى وقومه وقصة
عيسى وقومه من هؤلاء الذين تنصروا منهم وهادوا . وهم لاشك
ايضا قد عرفوا قصة ابراهيم عليه السلام مما تناقلوه جيلا بعد
جيل وبذلك الشاهد الخالد القائم في أرضهم وأعنى به الكعبة
الشريفة .

وقصص القرآن انما رويت لاستخراج العبرة والعظة ،
ولم يقصد منها التاريخ .. فهى والحانة هذه تريد ان تستعمل
الفن القصصى فى املاء مثل بعينها .. وقريب الى المنطق ان
القصص المستعملة فى هذه الحالة ليست جديدة على العرب
وانما هم قد ألفوا اصحاب الاسماء التى وردت فيها ، والفوا
الامكنة التى جاء ذكرها والفوا القوالب الفنية التى استعملها
القرآن ..

والقرآن حكى عن أمم سالفه كعاد وثمود ، وحكى عن
الانبياء كموسى وعيسى ونوح وهود ويوسف ، وحكى عن مدن
طغت حين اختل نظامها الاجتماعى ففسدت وهلكت ، وحكى عن
امكنة لها دورها فى تاريخ البشرية ، وهذا معناه ان العرب كانوا
يعرفون قصص الأمم السالفة وقصص الانبياء وقصص المدن
وقصص الامكنة .

بل ان فى قصص القرآن ما جاء على السنة الحيوان ومن
ذلك قوله تعالى : « حتى اذا أتوا على وادى النمل ، قالت
نملة يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده
وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب اوزعنى ان
اشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن اعمل صالحا
تَرْضاه وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » صدق الله
العظيم .. فليس غريبا اذن ان ترد فى القصص المروية لتفسير
بعض امثال العرب حكايات على السنة الحيوان ، وقد يكونون

قد عرفوها عن طريق صلاتهم ببلاد الهند والفرس وقد يكونون قد عرفوها من تراثهم هم ، وانما يأتى استعمال القرآن لها ليدل على انهم عرفوها على اية حال ..

ومن المعروف ان القصص كانوا يجلسون الى الناس بالمسجد أيام الخلفاء الراشدين يحكون لهم أحاديث الأمم الأخرى والاساطير ونحو ذلك .. ويذهب الأستاذ أحمد أمين فى كتابه فجر الاسلام الى أن هذه القصص قد استحدثت فى صدرالاسلام ويقول « روى عن ابن شهاب ان أول من قص فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الدارى استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة فكان تميم يفعل ذلك .. وفى رواية أخرى عن الحسن انه سئل متى أحداث القصص ؟ قال فى خلافة عثمان فسئل : ومن أول من قص ؟ قال : تميم الدارى » .

والواقع ان وجود هذه الظاهرة فى صدر الاسلام انما يعنى انها امتداد وليست شيئاً جديداً على الإطلاق لاننا نسأل .. وماذا كان هؤلاء يقصون ؟ الذى لا شك فيه أنهم كانوا يحكون شيئاً قديماً تعود الناس أن يسمعه منهم ، ولو أنهم لا شك ايضا قد بدأوا يقومون باختيار ما يخدم الدعوة الجديدة ويؤكد رسالتها .. ولم يكونوا يقصون شيئاً جديداً كل الجدة . ودليل

هذا ما يذكرونه عن النبي صلى الله عليه وسلم من انه استمع
من تميم هذا الى قصة الجساسة والدجال ..

والغريب ان ما بقى لدينا في كتب المؤرخين مما كان
يرويه تميم يكاد لا يكون شيئاً على الاطلاق ، وهكذا يقف تميم
هذا دليلاً على وجود القصة ، ويقف ضياع ما كان يرويه دليلاً
على ضياع قصص العرب التي كانوا يعرفون ويقصون .

ومعروف ان هناك منبعين كبيرين هما اقدم المنابع الاسلامية
في القصة ، اعنى بهما وهب بن منبه وكعب الأحبار . وكعب
الأحبار اسلم في خلافة ابي بكر او عمر وقد أخذ عن ابن عباس
وأبي هريرة .. وروى له الثعلبي والكنائي الكثير من القصص .
ولم يكن كعب الأحبار هذا بحال حجة فيما يتعلق بالاسلاميات
وانما كان بلا شك حجة فيما عرف العرب من قصص . وشأنه
في هذا شأن وهب بن منبه الذي ذكرته لك من قبل والذي توفي
في صنعاء في عام ١١٠ هـ وهو صاحب كتاب هام هو التيجان لعله
المنبع الاول لما عرف العرب من أساطير حول نشأة الكون
وقصص مبدأ العالم وظهور اللغات ونشأة اللغة العربية ،
يقصها عليك في أسلوب اقل ما يوصف به انه أسلوب قصصى .
والكتاب تحت ايدينا واحسب اننى سأحدثك عنه بعد حديثاً
مفصلاً لما له من أهمية خاصة في موضوعنا ..

فالقصاص اذن كان معروفا في صدر الاسلام ، وقصاص صدر الاسلام نعرفهم ونعرف أسماءهم ، ومنهم من ضاعت قصصه مع ما ضاع ، ومنهم من بقيت بعض أعماله كوهب بن منبه ، ومنهم من تناثرت أخباره بين الكتب وعلى السنة الرواة ككعب الأخبار ..

والقرآن كما قلنا هو سيد الأدلة ، فما دام القرآن قد استعمل القصة واعتمد عليها ، كما أن من انشأه في صدر الاسلام عرف العرب القصص وتناقلوا عنهم ، فلا شك اذن ان الجاهليين كان لديهم تراث كبير ضخم من هذا القصص .. وكما استطعنا من تتبع موضوعات القرآن أن نعرف موضوعات قصص العرب فنستطيع كذلك أن ننظر نظرة سريعة في قصص القرآن من ناحية السرد .

والقرآن يلجأ الى الاسلوب التصويرى في قصصه ، فهو بصور الحدث ويجسمه ويدفع فيه بالحياة ، وهو يرسم المكان ويصوره ويشركه في الحدث ، وهذا يعنى ببساطة أن أسلوب القصة العربية كان يعرف التصوير والتجسيد ويلجأ اليهما .

وقد لجأ القرآن الى الحوار يجريه على لسان شخص قصصه يتجادلون ويتناقشون ، بل لقد لجأ الى أسلوب الحوار في خطابه للمشركون وتردد فيه كلمة (قالوا) كثيرا ، كما تردد كلمة (قل) للرد على أقوال المشركين .. وهذا بالتالى يعنى

أن انعرب قد عرفوا هذا الاسلوب — أسلوب الحوار — فيما رويوا من قصص وما عرفوا من أساطير وحكايات .

الشاهد الذي اعتمدنا عليه في هذا الفصل من بحثنا هو القرآن الكريم . وقد وقف الدارسون المعاصرون والقدماء معا كما قلنا في مستهل كلامنا عنده مسلمين بصحته ، ولكنهم لم يحاولوا أن يأخذوا منه الدلالة الفنية القوية التي تشير اشارة واضحة الى هذا اللون من النثر الذي لا شك ان العرب عرفوه منذ عرفوا التعبير باللغة ، فليسوا أقل في هذا من غيرهم من الامم . . والعرب كانوا يعرفون الدين قبل الاسلام ، ولكنه كان ديناً وثنياً ، والدين الوثني لابد ان يرتبط كما تقرر تواريخ الاديان بمجموعة من الاساطير تتعلق بالوثن المعبود ، كما لابد ان يرتبط بمجموعة أخرى من الاساطير تتعلق بالطقوس التي ينبعونها في العبادة والتقرب الى اوثانهم . . وقد امتلأت الجزيرة العربية بالأوثان والأصنام من كل نوع ومن كل صنف ، بل لقد امتلأت الكعبة نفسها بالكثير من الأصنام لكل منها اسمه ودلالته . . وقد ارتبط العرب بطقوس معينة تغلفلت حتى أصبحت جزء من حياتهم ، فحملوا في رحلتهم حجراً يعبدونه ما بعدوا عن صنمهم الاصلى ، بل لقد تقربوا بكل أصنامهم وأحجارهم زلفى الى الله فضلوا الطريق اليه . . وعرفوا التشاؤم والتفاؤل وغدت حوله حركات وتصرفات أشبه بالطقوس . ولست أحسب أن كل هذالقى اليهم القاء فحفظوه ورددوه وآمنوا به خبط عشواء ، وانها أحسب أنه تغلفل الى قلوبهم عن طريق الاساطير ، وأحسب

انه ارتبط فى نفوسهم بأفعال معينة وطقوس بذاتها تخلفت لهم عن طريق الاساطير ، واحسب آخر الامر ان القرآن حاول محو كل هذه الاساطير محوا كاملا ، وحاول بما أورد من قصص أن يستغل هذا الفن الذى أولعوا به فى سبيل هدايتهم لا ضلالهم ، ورشدهم لا غيهم .. بهذا يستقيم الامر ولا يلتوى على أحد .

والواقع اننى لا أريد أن أزعم انه كانت هناك قصص وحسب ، بل أريد أن اصل من هذا الزعم الى قضية اكبر بأن اؤكد أن هذه القصص كانت بالمكان الاول من الحياة الادبية ، وانها كانت الفن المفضل عند الغالبية العظمى ، بينما حفلت اقلية خاصة بأمر الشعر والخطابة .. وربما اعتبرها المسلمون بعد هذا من خرافات الجاهلية فأهملوها خوفا على دينهم وعقائدهم، وحرصا على ما وضعه فيهم الاسلام من مبادئ ومثل ، وربما استطاع القرآن ان يقضى عليها فى معركته البلاغية الظافرة بما قدم لعقول الناس وقلوبهم من أعمال تفوقها روعة وجمالا فاكتفى الناس بما فيه من قصص لاشباع حاجاتهم الفنية ..

الا أن بعض الشواهد قد بقيت محفوظة فى أذهان الرواة فنقلوها لمصنفى الكتب عندما تقادم العصر ، فدونوا ما تعلق منها بمن يعرفون من أهل الجاهلية محاذرين قلقين واعتبروها اخبارا لا فنا ، وعلموا لا رواية .. ثم أتى المحدثون من بعدهم فوقفوا النثر الجاهلى على سجع الكهان والخطابة وأغفلوا الفن القصصى اغفالا ما احسبه خلا من ظنه اهمال وغفلة .